العري

لم تكن المرة الأولى التي أتشاجر فيها مع حسنين. ولكني اليوم أشعر بانقباض شديد يجثم على صدري حتى ليكاد أن يزهق أنفاسي. أزفر بصعوبة. يخرج الهواء من رئتيّ لزجا ثقيلا:

– يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف.

يتحرك لساني مرددا العبارة بتلقائية. صرير الصراصير الليلية يختلط بنقيق الضفدع في سيمفونية عجيبة أخالها ترجرج الكون فتخرج جثثه من قبورها. تتتالى الزفرات المختنقة محاولا شد أنفاسي. آخذ الطريق لبيتي المتهالك خلال الأراضي الزراعية. ركود الهواء يزيد من اختناقي فأفتح أزرار الصديري. تعود الذاكرة فأراه يقول:

– كيف الحال يا أبو حمدان؟

أنتبه على الصوت المتوعد. أصوب نظرتي إليه بينما أضع كفي أمام عينيّ لأحميهما من ضوء الشمس البازغ. أقوم مرحبا وقد انزلق قلبي في قدميّ بينما أنفاسي تتلاحق:

– أهلا يا معلم حسنين، أتفضل، خطوة عزيزة.

أسرع للمقهى المجاور. أشد أحد الكراسي لأناوله إياه بعد مسحه بطرف جلبابي بينما يرتفع صوتي المرتعش:

– حاجة ساقعة للمعلم يا وله.

أجلس على فرشتي التي أبيع عليها محصول العام. تتباعد

الضوضاء المميزة للسوق لتتلاشى. أخال الصمت قد سيطر على كل ما حولي. يخترقه فجأة صوت المعلم حسنين فيمزقه لينزف ضوضاء:

– كيف حال البيع يا أبو حمدان؟

– نحمده يا معلم، الحمد لله على كل شيء.

يطيل صمته الذي يزيدني رعبا في انتظار ما سينطق به. يقول:

– ولما البيع تمام ليه ما بعتليش إتاوتي؟

أصمت فيرعد هادرا:

– ليه ما بتردش عليّ؟

أقول بخوف وقد رأيت بعيني الكثيرين ممن اعترضوا على طلباته وما آل إليه حالهم:

– يا معلم الحال واقف وأنا ما بعتش شيء والله، وكل اللي عرفت أكسبه ميكفيش العيال وأمهم.

يزعق:

– وهي دي مشكلتي يا روح أمك؟ هو أنا بحميكم وسايبكم تبيعوا ببلاش؟ مبقيتش تكية لسه.

– وإيه اللي أنا أقدر أعمله؟ أأكل العيال وأمهم منين؟ أشحت؟

– افعل ما بدالك، مش مشكلتي ، المهم إتاوتي ، وأنت عارف إذا ما جبتهاش ممكن يحصلك إيه، ولاّ أنت متعرفش؟ لو مكنتش تعرف اسأل العيّل في بطن أمه و هو يقول لك.

– يا معلم الجماعة بتاعتي محتاجة....

ينظر إليّ بعينين ملتهبتين ليقول:

– لو وصلت لإنك سرّحتها وعرصت عليها مش مشكلتي، المهم انك تدفع اللي عليك.

كانت الطعنة قوية. مزقتني الجملة الطاعنة في شرفي لآلاف من القطع. التهبت الدنيا أمامي. انطلق الدم فائرا لتنطلق قبضتي كالقذيفة في وجهه بحركة لاإرادية. أحاطني صبيانه. أوسعوني ركلا ولكما. طرحوني أرضا. لم يتركوني إلا على شفا الموت ولم يستطع مخلوق أن يتدخل. سمعته يقول بينما يده على فكه:

– حتشوف نتيجة عملك، انتقامي قريب جدا.

تنطلق نسمة هواء باردة حركت الهواء من حولي فأفاقتني. ألتفت حولي. الظلام يحيطني من جهاتي الأربعة. أسير مرتعشا بينما أتساءل:

– إيه اللي يقدر يعمله؟ يقتلني؟ ولم لا؟ هو لا يخاف أحد، حتى الحكومة لا تخيفه؛ وإلا كانوا قد قبضوا عليه منذ زمن، الناس بتقول إن الحكومة تعرف ما يفعله وتتغاضى عنه لأنه يعاونهم، ولكن... إيه اللي بايده أكثر من قتلي؟ أولادي؟ لا... مش حيجرؤ، وإيه ذنبهم عشان ياخذهم بذنبي؟ ممكن يخرجوا عليّ الآن ويقتلوني، تمام، وبعدها يرموني في المصرف ولا من شاف ولا من دري.

أحث الخطو نحو بيتي. أدق الباب داخلا. تواجهني امرأتي منزعجة. تكاد أنفاسها أن تنسحب حينما ترى وجهي:

– إيه اللي بيك يا أبو حمدان؟ إيه الجروح دي؟

أرد ضائقا محاولا الابتسام:

– ولا حاجة، كنت بحاول تعدية المصرف فوقعت على وشي.

بحنان:

– أدخل أغسل وشك على ما أحضر العشا.

– لا، ماليش نفس.

أرتمي على فراشي. يحلّ عليّ تعب اليوم كله. الأولاد نائمون على ظهر الفرن. أفواه جائعة. أذكر منذ يومين لم يكن لدينا ما يكفي وجبة يومنا. وهذه المرأة من لها بعدي؟ أنتبه على صوت عمدان السرير المتهالك يصدر ضوضاء مزعجة من جراء استلقاءها جواري. أتساءل:

– إحنا معانا كام يا أم حمدان؟

– حوالي ثلاثين جنيه.

أقول في نفسي:

– ولا تكفي شيء، أنا مديون بخمسة وعشرين.

أشعر بيدها تمسح وجهي:

– مالك يا أخويا؟

أتأملها صامتا. يقتلني القهر. تزداد تساؤلاتها بحنو يفتتني. أضمها في صدري متنهدا. أقول:

– ولا حاجة.

أتحسسها لأضمها أكثر. أرفع جلبابها إلى صدرها. أنغرس فيها لتنطلق آهة خافتة:

– الولاد يا أبو حمدان.

تقولها بتدلل وفحيح هامس. يزيدني ضعفها قوة. أشتعل لأشعلها معي. تنطلق تأوهاتها خافتة راجية. يزداد صخب الفراش. تجذبني إليها بشدة. تكتم صوتها خشية سماع الأولاد لها. يزداد اشتعالي بينما أرى المعلم حسنين في خيالي؛ فأرغب في إيلامها. أراه يضربني أمام الخلق في السوق؛ فأكزّ على حلمتيها. تنطلق صرخاتها الخافتة فأزداد. أراه يقع مضرجا في دمائه بعد أن أوسعته ضربا؛ فتهدأ ثورتي بعدما أفرغها فيها لأستلقي جانبها. تتكوم على نفسها لتغط في نوم عميق.

ما أن استغرقت في نومي القلق إلا وسمعت رعدا يهز الباب الذي كاد أن ينخلع. أصرخ خائفا:

- مين؟

لا يرد عليّ أحد. يزداد الطرق. أسرع بفتحه لتقابلني ركلة قوية في بطني. أنطرح أرضا. يدخل صبيان المعلم حسنين. يقيدونني. يدخل ناظرا إليّ بتشفٍ:

- كيف حالك يا أبو حمدان؟

يقولها بحقد واضح. أرد بخوف:

- عايز إيه يا معلم؟

- حتعرف حالا.

ينظر لزوجتي التي انتحت ركنا وقد أحاطت الصغيرين بذراعيها. أراهم يرتعدون. يعلو صوته:

- هاتها هنا يا وله.

يسرع أحد صبيانه ليجذبها نحوه. تقاومه، تركله، تعضه؛

فيصفعها بقوة ليرميها تحت قدميّ المعلم. صوت الصغيرين يعلو منتحبا، يقول المعلم بهدوء عجيب:

– اخلعي ملابسك يا امرأة.

أهتاج ثائرا لكرامتي. أحاول التخلص من قبضاتهم. يركلني أحدهم بين فخذيّ لتنطلق آهتي تشق الكون. أراه يمزق ملابسها بينما هي تصرخ مستجيرة بي. تعضه فيصفعها حتى لكأن المكان قد ارتج من قوة الصفعة. يعريها تماما لتنهشها النظرات. يقول أحدهم:

– حلال عليك يا معلم.. مرة زي الفرسة.

يتأملون نهديها المنطلقين الفتيين. تمتد يده إليهما تعتصرهما. تقاومه فيركلها في بطنها. تجثو وقد استنفدت قواها. يخلع ملابسه ليتحسسها. يدخلها فأشعر بوخز بين فخذيّ يقتلني. تنطلق صرختها فتتضخم في أذنيّ حتى تكاد أن تمزق طبلتيهما تماما. تتلاشى المسموعات. أراه يعلوها بينما هي كالجثة من تحته. يداه تعبث بجسدها. حلمتاها بين شفتيه. يتحرك صاعدا هابطا ليمزقني. ينتهي منها ليتركها كي يتبادلها صبيانه. أراهم يتركونها جثة هامدة. يبول أحدهم عليّ قبل خروجه. أسمعها تئن ألما. أنظر حولي. الصغيران كأنهما تمثالان من الشمع. أتحامل واقفا. ألملم أشلاءها قدر المستطاع. تبكي فأجهش معها باكيا. أولول كمن فقدت زوجها. أنتهي من نوبة البكاء الشديدة التي انتابتني فأجيل النظر فيما حولي. تنتابني نوبة ضحك غريبة. يزداد ضحكي بينما عيونهم تتأملني وكأني جننت. أخلع ملابسي لأتف عاريا. أجري بقوة تجاه المصرف مصرّا على إلقاء نفسي فيه.